الفنان والصراع

الى اي مدى يعتمد الانتاج الأدبي على استقرار الفنان ومجتمعه وعلى عدم استقرارهما ؟ هل للفنان ان يتزوج ؟ هل للدولة ان توفر له أسباب الراحة فيصبح متفرغاً للفن الى جانب استعباد الدولة له ؟ الى اي مدى تصح الاقوال التي تتردد عن شذوذ الفنانين وعدم سويتهم ؟ كل هذه أسئلة تجول بخاطر المهتمين بالأدب بل بخاطر الأدباء انفسهم . ونحن إذا رجعنا الى تاريخ الفن نجده بدأ أول ما بدأ تعبيراً عن حياة اجتماعية ممثلة في شخص الاله او الحاكم ، وقد عبّر الفنان عن ذلك باقامته المعابد والقصور ، وحول سلطان الدين وسلطان الحكم نشأت الموسيقى والرقص والنحت والرسم والمعمار ، وما كان انبياء بني اسرائيل الا شعراء يعبرون عن آلام الأمة وآمالها .. ولكن بانحلال نظام العشيرة وقيام النظم الاخرى التي تنمّي الفردية في افرادها اخذ الفن بدوره يصبح تعبيراً عن إشكال فردي ، ولكنه يتخذ صورة بحيث يستطيع افراد المجتمع الآخرون ان يشاركوا في هذا الاشكال ، لأنه وان كان أساسه فردياً الا أنه موجود — أو يمكن ان يكون موجوداً — لدى كل فرد آخر من افراد الجماعة . فاذا مات لي ولد فان مصيبتي تكون اكبر لو لم يكن لجيراني الآخرين أولاد قد ماتوا هم ايضاً . ذلك لأن انتشار الحدث ووقوعه على اكثر من فرد يخفف من وقعه . وهذا ما يفعله الفنان لنفسه ولغيره . فهو يجعل الاحساس بالمأساة عاماً بحيث يخف وقعها على الجميع . وهكذا فان الفن ظل محتفظاً بصفته الاجتماعية وان تغير أساسه فلم يعد دينياً أو ملكياً ولكنه اصبح شخصياً . وكان للجنس نصيبه الاكبر في هذه المرحلة معبراً عن ذلك بما نسميه الحب . وكان ذلك متفقاً وتطور المجتمع الذي اخذ يقوم على أساس الملكية الفردية بما فيه ملكية النساء والمحافظة على بكارة العذارى وعفة المتزوجات ، مما خلق شيئاً من الحرمان الجنسي حاول ان يعوض عن نفسه في هذا اللون الجديد من الفن .

وهكذا أصبح الاساس الاولي للتعبير الفني في مجتمعنا هو وجود الصراع او الاشكال ، فاذا انتفى الاشكال او الصراع انتفت بالتالي الحاجة الى هذا اللون من التعبير ، فالرجل السوي الذي تكون اكثر مشاكله محلولة ويكون في اتفاق تام او إلى حد كبير مع بيئته لا يجد دافعاً الى القيام بعمل فني ، لكن حين تكون هناك مسافة بين بعض الافراد وبين مطالبهم — مسافة لا يستطيعون عبورها في عالم الحقيقة — فانهم يجدون هنا أن العمل الفني هو حل وسط لما يبتغون ، فلا هم نالوه حقاً ولا هم ظلوا في احلام يقظتهم الخالصة ! فهم يجعلون الناس يشاركون في حرمانهم وبذلك تخف حدة التوتر الضاغط على نفوسهم .

وليس من الضروري ان يكون هذا الحرمان حرماناً جنسياً او عاطفياً بل قد يكون حرماناً مادياً أو حرماناً قومياً ، فالفنان الذي يُحرم من الحب أو يشعر انه من فئة مضطهدة او مذلولة أو من امة مستعبدة ، كل هؤلاء يستطيعون ان يعبروا لنا بقوة وان يجدوا مادة خصبة تجد صداها لدى جماهير المحرومين من الحب او المضطهدين او المستعبدين . وذلك هو احد الاسباب التي تذكر دائماً في تعليل نبوغ شعب كالشعب اليهودي .

وما أخطر الراحة على الفنان ، ان يجد دائماً مجالاً يفرغ فيه طاقاته العاطفية او الجنسية اولاً بأول فلا يتبقى شيء يحوله نحو العمل الفني العظيم ، وان يجد نفسه من طبقة مسيطرة معززة مدللة . حقاً انه قد يجد الراحة وقد يسمن ويترهل ، وهذا ما يحدث لكثير من الحيوان الذي يقل لديه الاحساس فيصبح خالي البال .

حقاً ان هناك حداً لهذا الاشكال او الصراع ، وهو حد لو تعداه الصراع لما كان في امكان الفنان ان ينتج لنا شيئاً ، تماماً كما لو كان في راحة تامة . فالشخص الذي لا يجد ما يأكل لا يستطيع ان يكتب كلمة . واذا كانت له حساسية الفنان فانه ينتظر حتى يأكل وبعد ذلك يعبر لنا عن ايام جوعه وتشرده ، كما فعل غوركي وامثال غوركي .

وفي بعض المجتمعات التي تحاول ان توفر الراحة لفنانيها نجد ان حكومات هذه الدول تحاول ان توجه الفنان الى صراع آخر هو صراع الانسان مع الطبيعة ، ولو ان الواقع ان هذا اللون من الصراع من شأن العالم اكثر مما هو من شأن الفنان ، لهذا رأينا اكثر هؤلاء الفنانين لم يستطيعوا ان يقوموا بخير اعمالهم إلا حين اشتبك قومهم في حرب مع آخرين .

القاهرة **يوسف الشاروني**

(٤)